الضعف والسياسة

السياسة بمفردها بمفهومها العام هى الأسلوب الذى تتعامل به السلطة أو نظام معين مع المتغيرات المتلاحقة من حولها على الصعيدين الداخلى والخارجى، بما يضمن لها تحقيق أقصى المكاسب أو الوصول إلى أهداف تم تحديدها مسبقاً بناء على مذاهب وأيديولوجيات خاصة بكل نظام أو سلطة بعينها بما يخدم مصالح تلك النظم أو الدول التى تحكمها، ولكن هل لنا فى هذا السياق أن نضيف تعريفاً جديداً لكلمة سياسة، قد يكون أكثر قدرة على تلخيص المعنى الحقيقى لتلك الكلمة، ألا وهو أن السياسة هى فن استغلال الضعف الإنسانى.

ويظهر هذا المفهوم فى السياسات الداخلية والخارجية للدول على حد سواء، على مستوى السياسات الداخلية، يظهر هذا الاستغلال فى تعامل السلطات مع شعوبها، فإذا افترضنا أن السياسة الداخلية لأى دولة لها أضلاع ثلاثة، السلطة والدولة والشعب، فى الدولة الثابتة المستقرة ذات النظم الديمقراطية العريقة غالباً ما يكون هناك توافق وانسجام بين تلك القوى الثلاث، ولكن هناك دول أخرى كثيرة فى مناطق مختلفة من العالم لا يلاحظ فيها هذا التوافق، حيث يكون هناك عدم التطابق بين مصالح السلطة وبين مصالح الدول التى تحكمها، وخاصة تلك النظم التى أتت بقوة السلاح، وفرضت نفسها على الشعوب حيث يصبح هدفها الأول والثانى والثالث هو مجرد البقاء والاستمرار والسيطرة، ليأتى بعد ذلك بفارق كبير فى سلم أولوياتها المصالح العليا لدولها، ويختلف هذا الفارق من نظام لآخر، قد يصل فى بعضها إلى التجاهل التام لمصالح دولها.

● كما أن المصالح العليا لدولة ما تتطابق بالضرورة مع مصالح الشعب، فالأيديولوجيات القائمة على الرغبة فى التوسع مثلا والسيطرة على الدول الأخرى بقوة السلاح، تستنفد طاقتها فى نزاعات وحروب يكون وقودها دماء شعوبها، وتردى الوضع الاقتصادى لأبنائها، هناك أيضاً الدول التى تتبع أيديولوجيات تسعى للارتفاع بشأنها دون الاهتمام الكافى بالفرد، وقد أثبت التاريخ فشل النظم الشيوعية، التى سعت إلى مجد الدول وليس لمجد الشعوب والأفراد، بل دون مراعاة الاحتياجات الأساسية لمواطنيها، وقد تعلمنا من الاتحاد السوفيتى السابق كيف يمكن أن تكون هناك دولة عظمى يعانى أبناؤها من الفقر المدقع، بمجرد أن ينفرط عقدها حتى يهيم أبناؤها فى طرقات العالم، علماء كانوا أو عاهرات، يبحثون عن لقمة العيش.

بما أن هناك عدم تطابق فى أحيان كثيرة بين مصالح السلطة، ومصالح الدولة التى تحكمها، أيضاً بين مصالح بعض الدول، وبين مصالح شعوبها، تصبح النتيجة هو أن هناك عدم انسجام بين تلك السلطة والشعب، أو أن تلك السلطة لا تعبر عن إرادة شعبها، لا تتحدث بلغته، ولا توفيه احتياجاته، ولا ترقص على نغماته، ولكنها كى تستمر وتبقى، وهذا اهتمامها، يجب عليها أن تقنعه بغير ذلك.

ومن البديهى أنك حين تحاول إقناع شخص ما بأمر لا يتوافق مع مصالحه، يكون عليك أن تتجنب الصدق، وأن تعتمد على الخديعة، وأن تزيّف الحقائق، وتبدّل الوقائع، بذلك تستخدم السلطة كافة الوسائل المقبولة وغير المقبولة لإقناع الشعب أن هناك تطابقا بين مصالحه ومصالحها، وهى تملك كل الإمكانات التى تساعدها على هذا الأمر من وسائل إعلام وغيرها، فتزرع فى فكره مذاهبها حتى تصبح جزءاً من عقيدته، وتلقّنه مبادئها، وتجعله يرى الأحداث بمنظورها هى، فيرضى على من ترضى عنه وينقم على من تنقم عليه، وبذلك تخضعه لإرادتها، وتضمن بقاءها، ويتم باقتناعه، وإذا لم يقتنع بعد كل ما فعلته، فعليه أن يرضى بالأمر الواقع، وإن لم يرض، فليقبل صاغراً فى صمت، وإن لم يقبل، أصبح لزاماً عليها أن تقمعه، وهنا يظهر وجه السياسة القبيح.

● وبما أن السياسة هى أسلوب تعامل، والتعامل يتم بين طرفين، والسياسة تسعى لأن تضمن لأحد الطرفين وهو السلطة السيطرة الدائمة على الطرف الآخر وهو الشعب، لذلك كان عليها أن تهاجمه فى نقاط ضعفه، ويجب أن تعى جيدا تلك النقاط، فتستغلها لتحقيق أهدافها، ومن هنا أتى تعريف السياسة أنها فن استغلال الضعف الإنسانى.

ما هى إذن نقاط الضعف فى تلك الشعوب التى تستطيع من خلالها السلطة اختراقها والسيطرة عليها واخضاعها لما تريد؟ كل سلطة تعى جيداً قوة الشعوب، وقدرتها اللانهائية إذا ثارت، وهى تسعى بشتى الوسائل لتجنب تصعيد الأمور حتى لا تصل إلى تلك المرحلة، لذلك فهى تلجأ

إلى ترويض الشعوب وسياستها من خلال فهمها للطبيعة البشرية، والقوانين التى تحكمها كأفراد، واختلافها عنها كمجموعات.

على هذا يمكن تقسيم المجتمع تبعاً لتوجهاته السياسية إلى أربع مجموعات:

مجموعة غير مهتمة وغير فاعلة:

وهى تمثل هؤلاء الناس البسطاء المسالمين، الذين لا يشغلهم إلا احتياجاتهم الأساسية ومتطلبات حياتهم اليومية، يسعون لحياة هادئة بعيدة عن المشاكل، ذوى قدرات محدودة وطموح قليل، تابعين، يمضون فى الحياة كما يمضى الآخرون، يسيرون كالقطيع خلف من يقودهم ما دام يوفر لهم العشب والماء.

والمجموعة الثانية

هى مجموعة مهتمة ولكنها غير فاعلة، وهى تمثّل هؤلاء الناس الأكثر وعياً، والأكثر تفاعلاً مع الأحداث، والأكثر فهماً لما يدور حولهم، يتحدثون كثيراً، يحللون كثيراً، يعبرون عن سخطهم أحياناً فى جلسات مغلقة، ولكنهم فى النهاية مسالمون، سلبيون، لا يتخذون موقفاً إيجابياً، ولا يسعون إلى تحويل أقوالهم إلى أفعال، لأنهم فى الواقع خائفون. والغالبية العظمى من الأفراد فى الشعوب المختلفة تقع ضمن تلك المجموعتين.

المجموعة الثالثة:

هى مجموعة مهتمة وفاعلة فى نفس الوقت، وهؤلاء لهم فكرهم الخاص، ولهم آراؤهم التى يعتزون بها، على درجة عالية من الحب للوطن والانتماء له، وهم على درجة عالية من الثقة بالنفس والجرأة، بعضهم شديد البأس صعب المراس عنيد، فى مراحل حياتهم المبكرة تسيطر عليهم طاقة وطنية وقومية عارمة، يزيدها عمقاً واشتغالاً المظاهر المختلفة للإحباط السياسى فى المجتمع، أو الإحباط بشكل عام، ولكنها طاقة غير ناضجة وغير موجهة، تبحث عن هوية تحتويها، وطريق تنطلق فيه لتعبّر فيه عن رفضها للوضع القائم، فتصبح صيداً سهلاً للأيديولوجيات المختلفة، وقد تنتمى لبعض الحركات المعادية للنظام، ومنهم من يملك قدرات خطابية وقدرة على التأثير فى الآخرين، يصبح مصدر إزعاج شديدا للسلطة، لأن فى استطاعته التأثير على بعض الأفراد من المجموعة الثانية وتأليبهم عليها، وإثارة مشاعرهم ضدها، وتكوين جبهة مضادة تقف فى مواجهة أهدافها وتوجهاتها.

أما المجموعة الرابعة:

فهى مجموعة فاعلة ولكنها غير مهتمة، وهى تمثل هؤلاء الأفراد الذين لا يأبهون بمصالح دولتهم بقدر ما يهتمون بمصالحهم الخاصة، فهم يفتقدون للانتماء، وللروح الوطنية المخلصة، لا يتعصبون لفكر معين، ولا يلتزمون بمبادئ ثابتة، ولا ينتمون لمذهب أو عقيدة، حتى وإن بدا عليهم غير ذلك، بل إنهم كثيرا ما يتصنعون التمسك بالشعارات، والدفاع عن المبادئ والقيم، والحماس الشديد لفكر أو لمذهب ما، لكنه حماس سطحى أجوف لتحقيق هدف أو وصول إلى غاية محددة، فهم أنانيون، لا يأبهون إلا لمصلحتهم الشخصية، حتى وإن كان ذلك على حساب الآخرين وغالبا ما يسلك أفراد تلك المجموعة أحد طريقين، إما الترقب للسلطة أو معاداتها، والذين منهم ذوو قدرات متميزة من حدة ذكاء، وحنكة، ومهارة، وقوة شخصية، وطموح شديد، وقدرة على التأثير فى الآخرين، مراتب يتميزون فى كلتا الحالتين، فمن السلطة يستطيعون الوصول إلى مراتب عليا فى الحكم، وضد السلطة يستطيعون التأثير على بعض الأفراد من المجموعة الثالثة والثانية، ويستغلون طاقتهم وحماسهم بذكاء لتحقيق مآربهم وأهدافهم.

● والسلطة فى أسلوب تعاملها مع تلك المجموعات الأربعة تسعى لتحديد نقاط ضعف كل مجموعة على حدة، ومن ثم استخدامها لإخضاعها وبالتالى تأمن غضبتها وثورتها، أو توجيه طاقتها لخدمتها.

● **فالمجموعة الأولى**، وهى الأسير فى التعامل معها، لأنها بطبيعتها مسالمة آمنة محدودة الطموح والقدرات، نقطة ضعفها تكمن فى احتياجاتها الأساسية ولقمة العيش، مجرد توفيرها ولو بقدر ضئيل، يكفى أن تظل خاملة ساكنة، تقبل فى صمت كل ما يفرض عليها، غير عابئة بما يدون حولها من متغيرات.

● **أما المجموعة الثانية** فهى الأهم، لأنها تمثل القاعدة التى من الممكن أن تكون شديدة التأثير إذا تم استخدامها من قبل أفراد لهم توجهات معادية للسلطة، والسمات التى كانت تميزهم كأفراد تختلف عنها حين يتجمعون، فكما أوضحنا

د طارق درويش
استشارى الطب النفسى

هم مسالمون، سلبيون بعض الشيء يسعون لعدم المواجهة مع السلطة، ولكن فى المقابل الكثير منهم انفعاليون، ذوو قابلية عالية للإيحاء، يسهل التأثير عليهم، خاصة إذا كانوا محبطين، ودائماً كان العنف وليد الإحباط، فكلما شعر هؤلاء بالإحباط، صاروا أكثر عنفاً، لكنه عنف داخلى، لا يتم التعبير عنه لأن الخوف يمنعهم، فهم بمفردهم لا يقوون على القيام بأى فعل، لكن حين يلمس أحد الأفراد نقاط إحباطهم بذكاء، ويستثير فيهم مشاعر العزة والكرامة والرفض، ويؤمّن خوفهم، بأنهم أفراد فى مجموعة، وفى التحرك الجماعى تذوب المسؤولية، ويستطيع كل فرد أن يحتمى بالآخر، أو أن يختبئ خلف الآخر، أو أن يتنصل من المسئولية إذا سئل، بالإضافة إلى أنه لا توجد سلطة أيا كانت تستطيع أن تعاقب جموع شعب إذا تضخم عددها وإلا تكون وقعت فى خطأ تاريخى كبير، عندها يشعر بالأمان ويبدأ بالتعبير الحر عن مكنون ذاته، ويجد هذا الفرد نفسه منخرطاً فى صراع مع السلطة، من جهته هو يفعل ذلك لمجرد التنفيس عن كبت داخلى وإحباط، ولكنه فى الوقت ذاته يشارك عن غير علم أو قصد فى تنفيذ مخطط ما رسمه آخرون، قد يكون الهدف منه مصلحة وطنه، وقد يكون غير ذلك.

وهكذا نلاحظ أن هناك نقاط ضعف فى تلك المجموعة يستغلها أفراد معينون لإثارتهم، كما تضعها السلطة فى حسبانها فى محاولتها للسيطرة عليهم، وهى أنهم انفعاليون، خائفون، ومحبطون،

لذلك يجب على السلطة أن تسعى أولاً لإزالة أسباب الإحباط لديهم، وهو بالطبع ليس بالأمر الهين ولا اليسير، فللإحباط أسباب كثيرة منه مادى ومنه معنوى، ومهما حاولت أى حكومة من الحكومات توفير السبل التى تزيل أسباب الإحباط لدى شعب ما، سيظل هناك جوانب أخرى كثيرة لن تستطيع تداركها، خاصة إذا كانت تلك النظم مفروضة على الشعوب ولا تعبر بصدق عن إرادتها، فهى تستطيع خداعه لبعض الوقت، ولكن ليس دائماً، لذلك تلجأ تلك السلطات إلى الاعتماد على النقاط الأخرى، وأهمها الخوف، وتلك المجموعة لا تمثل مشكلة فى العادة إلا إذا تجمعت وثارت، لأن الأفراد فى تجمعهم يكون هناك تأثير مستتر من كل فرد على الآخر، فيتضاءل الخوف بداخلهم ويصبحون أكثر جرأة فى التعبير عما بداخلهم من قهر ويأس، كما يتضاءل الفكر المنظم ويسيطر السلوك العشوائى، وتقل النظرة الموضوعية وتعلو النبرة الانفعالية، وتختفى الحكمة وبعد النظر والتقييم السليم للأمور ويحل محلها ضيق الأفق والتوتر وسوء التقدير، ويصبحون طاقة غير موجهة، يسيطر عليها العنف والعصبية والرغبة فى التدمير، أكثر استعداداً لتقبل ما يقال لهم ويستثير مشاعرهم سواء كانت حقائق أو أكاذيب.

وتعالج السلطة تلك بإحدى وسيلتين، وسيلة للوقاية وأخرى للعلاج، والوقاية هنا تعنى أنه لا تسمح السلطة بحدوث تلك التجمعات من الأصل، أما العلاج فيكمن فى كيفية التعامل معها حين حدوثها، وفى كلتا الحالتين تعتمد السلطة على الخوف، فللوقاية تسعى السلطة إلى زرع الخوف فى نفوس مواطنيها، خوف دائم ومستمر، من خلال جهاز مخابرات قوى، يتغلغل بين أفراد الشعب، يكون سيفا مسلطا على رقابهم يغذيهم بشعور دائم أنهم مراقبون، وأن هناك من يتابعهم، يسجل حركاتهم وسكناتهم، كما ينقل إلى مسامعهم أخبارا بعضها حقيقى وآخر لا يمت للحقيقة بصلة، عن أشخاص تعدوا حدودهم وتحدثوا بما لا يليق عن زعيم ملهم، أو قائد من الأشاوش أو غير ذلك، فيلقون فى السجون، يُعذبون، وقد يُقتلون نتيجة فعلتهم التى لا تغتفر، ويستخدمون تعبيرات ذات وقع رنان تبعث الرهبة فى النفوس، مما يؤدى إلى تعميق الشعور بالخوف بداخلهم، مما يحيلهم إلى كيانات واهية مرتعدة، تخشى صمتها، تحسب حساب أنفاسها، وتتشكك فى أقرب الناس إليها.

هذا خطأ فادح تقع السلطات التى تتعامل بمثل هذا الأسلوب، وإن كان بالفعل يضمن لها البقاء والاستمرار، لكنه بقاء أجوف أعرج كئيب، يرتع فى ظلام دامس، يلفه الحقد والضغينة والكراهية، وملطخ بدماء شرفاء، يفتقد فيه أصحابه للراحة والطمأنينة والأمان، يرتد الخوف فيه إلى صدورهم، وهل لزارع شيء أن يحصد غير ما زرع؟ ليعيش هو نفسه أسير الخوف الذى أغرق الناس فيه.. ولو كان يعلم لأدرك أن هؤلاء الناس من تلك المجموعة ليسوا فى حاجة لكل هذا العناء، بل كان يكفيه التلويح بالعصا إذا ثاروا، وكان هذا سيؤدى إلى نفس النتيجة التى ترغبها السلطة، لأنهم كما ذكرنا سابقا أناس بسطاء، عتبة الخوف متدنية لديهم، بمعنى أنه يسهل إرهابهم، فهم يعلمون تماماً أنهم لا يقوون على معاداة السلطة ولا يرغبون فعلياً فى المواجهة معها، وينتفضون من تلقاء أنفسهم حال إحساسهم أنهم فى مواجهة حقيقية ومباشرة معها، ولكن قلق السلطة، وهاجس الخوف على عرشها، وافتقادها للسكينة والطمأنينة والأمان، صوّر لهم الأمر على غير ذلك.

ناتى للمجموعة الثالثة، وغالبا ما تتعامل السلطات مع تلك المجموعة على المستوى الفردى وليس الجماعى، فأفراد تلك المجموعة لهم فكرهم الخاص، وقد تكون لهم انتماءات سياسية مختلفة ليست على وفق توجهات السلطة، ولكنهم يتميزون بالعند والمثابرة والجرأة وعدم الخوف، يملكون وضوح الهدف والعزيمة والتصميم، دائماً ما يكونون هم الشرارة التى تشعل حريق الثورات والمحرك الرئيسى وراء أى تحرّك جماعى معادٍ للسلطة، ولأنهم فاعلون ومتحركون فهم أوضح ويسهل على السلطة التقاطهم، ولكنهم بالطبع أصعب فى التعامل من أفراد المجموعة الأولى والثانية، لأنهم أكثر تمرداً، وأقل خوفاً، وأعمق فكراً، وأشد قناعة بمبادئهم، ليس من السهل إثناؤهم عن توجهاتهم ونشاطاتهم، ولكنهم فى النهاية بشر، العالم بطبيعة البشر يدرك أن لكل إنسان فى هذا الوجود قدرة ما على التحمل مهما زادت فهى محدودة، له عتبة ينكسر عندها، تخور بعدها قواه، فيستسلم فى عجز ويأس ويبدأ فى التنازل عن قيمه ومبادئه، وتأتى الضغوط إما بالترغيب أو الترهيب، أصحاب الدرجات المتدنية يستسلمون لأقل المغريات من مال أو غيره، وأصحاب الدرجات الأعلى يحتاجون لإغراء أشد تأثيرا، وهناك من لا تثنيه أموال الدنيا عن قناعاته ومبادئه، هذا إما زاهد فى الدنيا، أو شديد التمسك بعقيدته التى يجاهد من أجلها، أو أنه شديد العند متصلب الفكر صعب المراس، أو أنه الثلاثة معا.

● ونحن هنا لا نناقش صدق تلك المبادئ ولا مدى أهميتها أو ملاءمتها لصلاح مجتمع ما، فتلك أمور نسبية تعتمد على اتجاهات ذلك الفرد ومدى تناسبها مع الظروف العامة للدولة التى يعيش فيها، المهم مدى قناعة هذا الفرد بها، وأن تلك الأمور تؤدى إلى ارتفاع درجة تحمله والعتبة التى من الممكن أن ينكسر عندها، لذلك تلجأ السلطة للترهيب، وتبدأ فى استخدام القسوة، وبدرجات تختلف فى شدتها حسب درجة تحمل كل فرد ومدى ثباته وتصميمه وصلابته، وليس من الحكمة التعامل مع أفراد تلك المجموعة كوحدة واحدة، أو استخدام القسوة معهم بشكل عشوائى، فقليل للغاية من الناس من ترتفع عتبة التحمل لديهم إلى الدرجات التى تستدعى استخدام تلك الدرجات العليا من الترهيب، وإذا كان فى نية سلطة ما اتباع تلك الأساليب، فليكن على المستوى الفردى، وليس على المستوى الجماعى، وأن يتشكل الأسلوب حسب ثبات كل فرد ودرجة تحمله...

فالمفترض أن تلك السلطة تهدف إلى ردع أفراد بعينهم، وليس إلى الانتقام منهم أو تدميرهم نفسياً ومعنوياً، فتلك الأساليب الخرقاء تشوّه صورة أى سلطة كانت، وتلك الأساليب غير الآدمية والامتهان الصارخ لقيمة الإنسان وكرامته مهما كانت مبرراتها، إنما هى وصمة فى جبين مرتكبيها، تمحو أى إنجاز إيجابى فى تاريخهم، لأن لا شيء فى الكون يمكن أن يمحو خطيئة ظلم إنسان لإنسان، أو امتهان كرامته عن غير حق.... ومهما فعلت أى سلطة تلجأ إلى تلك الوسائل بهدف نهضة دولتها ورفعة شأنها، ومهما حققت من إنجازات تبعث على الفخر، هى فى الواقع لم تحقق شيئاً، لأن الأمر أولاً وأخيراً يجب أن يعود على المواطن الفرد، حيث يبعث فيه هذا النجاح مشاعر الفخر والعزة والزهو والكبرياء، فكيف تأتى تلك المشاعر لإنسان مقهور بائس، وكيف يشعر بالفخر إنسان ممتهن فى وطنه ذليل.

● وليت الحاكم الذى يلجأ إلى إرهاب شعبه يدرك أى جريمة يرتكب، وحجم تبعات تلك الجريمة، فقد تعلمنا من التاريخ أنه لا خير ولا أمل فى شعب تعلم كيف يخاف، ولا صلاح لمجتمع مذلول مقهور، كما أن الحاكم الذى يلجأ إلى إرهاب شعبه لا يدمر أبناء جيله فقط، ولا يتوقف تأثيره على مرحلته فقط، بل يمتد هذا التأثير إلى المراحل التى تليه، ويضمن تدهور هذا الشعب لأجيال وأجيال، وهذا بالفعل ما يحدث لأسباب عدة أهمها أن الشرخ النفسى والجرح الغائر فى نفوس البشر وكرامتهم يحتاج لأعوام وأعوام حتى يندمل ويبرأ الناس منه، أما السبب الآخر وهو الأهم، أن اختيار القيادات التى تساعد ذلك الحاكم فى حكمه يصبح اختيارا فاسدا، لا يخضع للمصلحة العامة والكفاءة بقدر ما يخضع لأهواء هذا الحاكم، وقدرة تلك القيادات على النفاق والتملق والمداهنة، **والمفترض أن القيادة الناجحة فى أى مجال، تسعى لاختيار معاونيها من الكوادر القادرة على التطور الحقيقى وتغيير الواقع إلى الأفضل، وتحقيق آمال شعب ما وأحلامه**، رجال مخلصة أمينة يعتصرها حب الوطن والانتماء له، ذات نظرة ثاقبة وفكر متحرر خلاق، واثقة من نفسها، عادلة، عزيزة النفس، معتزة برأيها فى كرامة وكبرياء.

وتلك كلّها سمات يذبحها الخوف، ولا يمكن أن تتواءم أو تتجانس مع هذا النوع من الحكام، فمثل هذا الحاكم لا يريد فى معاونيه قيادة معتزة برأيها، بل يريدها معتزة برأيه هو، ترى بعينيه حتى ولو كان أعمى، وتتحدث بلسانه حتى وإن كان أخرق ذا فكر أجوف سقيم، يريدها على استعداد دائماً لأن تمحو قيمتها فى وجوده، وتذيب نفسها لكى يشع هو ويضيء، تبذل طاقتها لبناء مجده الشخصى، ولا تسعى لشيء إلا رضاءه عنها.

● لك أن تتخيل عزيزى القارئ البناء النفسى لتلك القيادات المعاونة لهؤلاء الحكام، هل تتوقع منهم الإخلاص والانتماء للوطن، هل تتوقع منهم العدالة والصدق والكفاءة، والأهم من ذلك، هل تتوقع منهم الاختيار السليم لمعاونيهم، فما بُنى على باطل لابد أن يكون باطلاً، ولا يمكن أن ينجب الخطأ شيئاً صحيحاً، ولا يأنس الفاسد لصادق أو أمين، ففى النهاية تقع الطيور على أشكالها، ليصبح أتباع الحاكم وأتباع أتباعه ومن يوالونهم هم أسوأ من فى هذا المجتمع، لينتشر الفساد فى كل مؤسسات الدولة نتيجة هذا الاختيار المعكوس، ولينزوى أصحاب الفكر المتحرر، ليصمت أصحاب العقول الخلاقة، وليفكر المخلص الصادق بصدقه وانتمائه لوطنه، وليشقى عزيز النفس بعزة نفسه، وليبكى أصحاب الكرامة والكبرياء على أطلال العزة البائدة.

هكذا حين يرحل هذا الحاكم، يترك خلفه هذا الميراث الثقيل من الفساد الإدارى، والتدنى الأخلاقى، والاضطراب الشديد فى المفاهيم بين الصح والخطأ، واختلاط الأمر فى المعايير التى تؤدى إلى النجاح أو الفشل، أما الميراث الأكثر ثقلا هو هذا الزخم من القيادات الباهتة الواهية التى تحتاج إلى أجيال وأجيال حتى ترحل هى وأذنابها، ليحل محلها أجيال واعدة جديدة، ولا يحدث هذا ببساطة أو تلقائية، لأن من المتوقع أن يظل هذا الاختيار المعكوس يتتابع بشكل تلقائى، كأنه يدور فى حلقة مغلقة، ولا تنكسر تلك الحلقة إلا بطفرة أو ثورة، وحدوث طفرة يعنى أن يكون هذا شعبا محظوظا يبعث له القدر من بين هذا الخضم، حاكما عادلا، مخلصا، أمينا، يُحدث تحولات جذرية فى الهيكل الإدارى للدولة برمتها، ويعيد وضع أقدامها على الطريق الصحيح..... أو ثورة شعبية تطيح برموز الفساد، وتضع مبادئ عهد جديد، ولكن مع حدوث ثورة يظل هناك الخوف، كل الخوف، أنه بعد أن تهدأ الأيام الأولى لتلك الثورة، يجد هذا الشعب المسكين نفسه بالفعل فى عهد جديد، ولكن مع طاغية جديد.

أما المجموعة الرابعة، فالكثير منهم لا يكلف السلطة شيئاً، لأنهم الذين يسعون للتقرب إليها، فهم يدركون أن مصالحهم فى القرب منها، والذين منهم ذوو قدرات بسيطة وطموح محدود، يهتمون بالالتصاق بالسلطة أو ممثليها، أو من يمت لها بصلة من قريب أو بعيد، ويرسم طريق حياته على أن يكون عبدا لتلك السلطة، يدين لها بالولاء، ويفنى ذاته فى خدمتها، ولا يطمح فى المقابل إلا فى الشعور بالأمان فى كنفها، وما تلقيه إليه من فتات، أما من هم أكثر ذكاء وحنكة، ذوو التفكير المنظم والتخطيط المتقن، الواثقين من أنفسهم، ذوو الطموح الحاد، الذين يملكون قدرات خطابية وجاذبية اجتماعية، أو قدرة طاغية فى التأثير على الناس، فهؤلاء يسعون للوصول إلى أكثر من ذلك، ولكنهم كما أوضحنا سابقاً يفتقدون للإخلاص والصدق والأمانة والعدالة، انتماؤهم لمصالحهم الشخصية قبل أن يكون لنزعتهم القومية، وإن كانوا يدعون غير ذلك بمهارة واقتدار، على استعداد لاستغلال المواقف والظروف والأفراد من حولهم للوصول إلى أهدافهم، هؤلاء هم الذين يسبحون دائماً مع التيار، ويرقصون على كل النغمات، ويستطيعون تبديل رقصاتهم بحنكة وذكاء، مع كل لحن جديد، أو حاكم جديد، هؤلاء هم رجال كل العصور، وكثير منهم من يستطيع الوصول إلى المقاعد القيادية فى ظل الحكم الذى تحدثنا عنه سابقاً، بل قد يستطيع أحدهم أن يصبح هو الحاكم الجديد.